الفصل السادس عشر

المتطرفون

110

المتطرّف، وحده، هو الذي يستطيع، عندما تجيء اللحظة المناسبة، أن يفرّخ حركة جماهيرية حقيقية. في غياب المتطرف، يظلّ التذمر الذي أثاره رجال الكلمة المعارضون بلا هدف، ويمكن أن يتبدد في اضطرابات لا غاية لها يسهل القضاء عليها. وأي إصلاحات جديدة، حتى عندما تكون جذرية، لا تستطيع في غياب المتطرف، تغيير نمط الحياة القديم. وأي انتقال للسلطة، في غياب المتطرف، لا يتجاوز، عادة، نقل الحكم من رجال عمليين إلى رجال عمليين مثلهم، باختصار، يمكن القول: إنه بدون المتطرف، لا يمكن أن تكون هناك بداية جديدة.

عندما يبدأ النظام القديم في التهاوي نجد أن عددًا كبيرًا من رجال الكلمة المعارضين، الذين صلّوا من أجل هذا اليوم، يصابون بالهلع. ينتابهم من النظرة الأولى إلى الفوضى العارمة فزع يشل قواهم العقلية. وهنا ينسون كل ما قالوه عن (الناس الطيبين البسطاء) ويهرعون إلى طلب الحماية من الرجال العمليين - النبلاء والضباط الكبار والإداريين ورجال البنوك ومالكي الأراضي - الذين يستطيعون التعامل مع الغوغاء وإيقاف مدّ الفوضى.

ليس هذا شأن المتطرف: إن الفوضى هي البيئة التي يبدع فيها. عندما يبدأ النظام القديم في التصدع يتقدم المتطرّف بكل جرأة؛ ليؤجج نيران الغضب على هذا النظام. يجد المتطرّف الرضا والمتعة في رؤية العالم القديم ينتهي بغتة، ولتذهب الإصلاحات إلى الجحيم. لم يبقَ سوى الأنقاض، ولا يوجد ما يدعو إلى إصلاح الأنقاض. يبرر المتطرّف نزعته إلى الفوضى تبريرًا منطقيًّا، إذ يقول: إنه من المستحيل أن تكون هناك بداية جديدة، والنظام القديم يزحم الأرض. يزيح المتطرّف رجال الكلمة جانبًا، إذا كانوا لا يزالون على المسرح، ومع ذلك يستمر في تمجيد المذاهب التي صاغوها، وترديد الشعارات التي ابتكروها. المتطرف، وحده، هو الذي يعرف الرغبة المعتملة في صدور الجماهير الزاحفة: الرغبة في الوحدة والتكتل وحشد الصفوف والتخلص من الفردية الممقوتة، ليحل محلها جلال الكيان الواحد وعظمته. يصبح المستقبل هو الملك، والويل لمن يحاول التمسك بالحاضر، سواء من داخل الحركة أو من خارجها.

111

من أين يجيء المتطرفون؟ يجيئون، غالبًا، من صفوف رجال الكلمة غير المبدعين. إن أهم تفرقة بين رجال الكلمة هي بين أولئك الذين يحصلون على الرضا والشعور بالاعتزاز

نتيجة عملهم وبين أولئك الذين لا يشعرون بشيء من هذا. إن رجل الكلمة المبدع، برغم انتقاداته المريرة للنظام القائم هو، في الحقيقة، إنسان مرتبط بالحاضر، يتطلَّع إلى الإصلاح لا إلى الهدم. وعندما تبقى الحركة الجماهيرية في عهدته، فإنه ينزع إلى تحويلها إلى حركة سلمية، وأي إصلاحات يقوم بها تظل سطحية تجري الحياة تحتها دون انقطاع. إلا أن بقاء رجل الكلمة المبدع في قيادة الحركة لا يتحقق إلا بغياب الفوضى من المسرح، إما لأن النظام القديم تنازل بلا مقاومة، أو لأنه حالف رجالًا عمليين أقوياء قبل انفلات الفوضى من عقالها. إلا أنه عندما يكون الصراع مع النظام القديم مريرًا تسوده الفوضى، وعندما يتعذر الانتصار دون العمل الجماعي والتضحية بالذات، فإن رجال الكلمة المبدعين يدفعون جانبًا وتصبح السيطرة على الأحداث في يد رجال كلمة غير مبدعين، لا يستطيعون الانتماء إلى الحاضر، ولا يكنّون له سوى الكراهية.

إن الرجل الذي يودّ أن يكتب كتابًا عظيمًا، أو يرسم لوحة رائعة، أو يصمم مخططًا معماريًّا استثنائيًّا، أو يصبح عالمًا شهيرًا، ويعلم أنه لا يستطيع أن يقوم بشيء من هذا، ولو منح الأبدية، هذا الرجل لا يجد طعمًا للسلام في نظام اجتماعي مستقر، سواء كان قديمًا أو جديدًا. يرى هذا الرجل أن حياته

قـد فسدت بلا أمل في علاجها، ويـرى العالم المحيط به مختلاً ومعيبًا، ولا يشعر بالراحة إلا في جو من الفوضى. وعندما يلتزم هـذا الرجـل بالانضباط أو يفرضـه على الآخريـن، فإنه يفعل ذلـك لأنـه يرى أن هـذا الانضباط يمكنه من المضـيّ في عملية تغيـير لا تنتهـي. لا يستطيع المتطرّف العيش مـع نفسه – ولهذا فهـو يخاف الاستقرار والأوضاع الهادئـة المنتظمة. بإمكاننا أن نعـد قادة الثـورة الفرنسية الدمويين ولينـين وموسوليني وهتلر أمثلـة صارخة لمتطرفين خرجوا من صفـوف رجال الكلمة غير المبدعين(*)، يلاحظ بيتر ڤيريك أن معظم القياديين في الحركة النازيـة كانـت لديهـم طموحـات فنيـة وأدبيـة لم يتمكنوا من تحقيقها. جرّب هتلر الرسم والهندسة المعمارية؛ وجرّب جوبلز المسـرح والرواية والشعـر؛ وجرّب روزنـبرج الهندسة المعمارية والفلسفـة؛ وجرّب ڤون شيراك الشعـر؛ وجرب فنك الموسيقى؛ وجرب ستريجر الرسم. (كان الجميع فاشلين لا بمعايير النجاح الموضوعية فحسب، بل حسب معاييرهم هم). كانت طموحاتهم الفنيـة والأدبيـة، في الأسـاس، أعمـق بكثـير مـن طموحاتهم السياسية، وكانت جزءًا لا يتجزأ من شخصياتهم»[1].

(*) نلاحظ، في هذا السياق، دون تعليق أن اثنين من الزعماء الثوريين العرب المعاصرين كشفوا عن طموحات أدبية لا تدعمها سوى موهبة شديدة التواضع! (المترجم).

(1) Peter Viereck, Meta Politics (New York: Alfred A. Knopf, 1941), pp. 156, 170.

لا يشعر رجل الكلمة المبدع بالراحة في جو الحركة الجماهيرية النشطة، بل يحسّ أن حيويتها وعواطفها المتأججة تمتص طاقاته المبدعة: ما دام الإبداع يسري في دمائه، فهو لا يجد أي متعة في قيادة الملايين وتحقيق الانتصارات، والنتيجة الحتمية، عندما تبدأ الحركة هديرها، هي أن يتخلى عن موقعه طوعًا أو يزاح بالقوة. ونظرًا إلى أن رجل الكلمة المبدع لا يستطيع خنق حاسته النقدية، فإنه يتحوّل، بالضرورة، إلى منحرف عن العقيدة السليمة. ومن هنا نرى أن رجل الكلمة المبدع، إذا لم يستطع خنق الحركة الوليدة بالتحالف مع رجال عمليين أقوياء، وإذا لم يمت في اللحظة المناسبة، فليس أمامه سوى أن يصبح معزولًا ومهمشًا ومنسيًا، أو أن يواجه الإعدام.

112

يكمن خطر المتطرّف على تطور الحركة الجماهيرية في عجزه عن الهدوء. عندما يتم النصر، ويبدأ النظام الجديد في التبلور، يصبح المتطرّف عامل توتر وإرباك. يدفعه جوعه إلى إثارة العواطف العنيفة إلى البحث عن أسرار جديدة لا بد أن تكشف، وأبواب سرية جديدة لا بد أن تفتح، كما يدفعه إلى البحث المستمر عن أشدّ المواقف تطرفًا. ومن هنا تجد معظم الحركات الجماهيرية نفسها غداة انتصارها في قبضة الشقاق والخلاف. تتحول الحماسة، التي كانت، في

السابق، تتجلى في صراع حتى الموت مع أعداء خارجيين إلى صراعات عنيفة وصدام بين الأجنحة، وتتحول الكراهية إلى عادة متأصلة. بمجرد أن يغيب الأعداء الخارجيون يبدأ المتطرفون معاداة بعضهم بعضًا. استطاع هتلر، الذي كان هو نفسه متطرفًا، أن يحلل بدقة عقلية المتطرفين الذين تآمروا عليه ضمن صفوف الحركة النازية. في الأمر الذي وزعه على زعيم البوليس السرّي الذي عينه بعد القضاء على الزعيم السابق روهم، تحدث هتلر عن (أولئك الذين يرفضون أن يهدؤوا، الذين وجدوا في العَدَمية، دون أن يشعروا، عقيدتهم النهائية.. أن ما يشعرون به من قلق وتذمر يحرمهم الرضا ويدفعهم إلى التآمر، وإلى التخطيط المستمر لتدمير كل ما هو قائم في الوقت الحاضر)[1] وكما هو الحال، عادة مع هتلر، فإن اتهاماته لأعدائه، داخل ألمانيا وخارجها، أشبه ما تكون باعترافات شخصية. وهو نفسه، في أيامه الأخيرة، وجد في العدمية (الفلسفة النهائية والتبرير النهائي)[2].

ينزع المتطرفون، إذا سمح لهم بحرية العمل، إلى شقّ الحركة وإدخال انحرافات وخلافات تهدد بقاءها. وحتى

(1) Hans Bernd Gisevius, To the bitter end (Boston: Houghton Mifflin Company, 1974), pp. 121- 122.

(2) H. R. Trevor- Roper, The Last Days of Hitler (New York: Macmillan Company, 1947), p. 4.

عندما لا يتعمّد المتطرفون إثارة الفرقة، فإنهم يستطيعون تحطيم الحركة بدفعها نحو أهداف يستحيل تحقيقها. لا ينقذ الحركة شيء في هذه المرحلة سوى دخول رجل من الرجال العمليين.